دروس من إيران

الجماعة الإسلامية – جامعة القاهرة

﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران : 26]

إنّ ثورة الشعب الإيراني التي هزت العالم من أقصاه إلى أقصاه ، وأجبرته أن يتابع مذهولاً أحداثها لحظة بلحظة وفاقت في عنفها وانضباطها –في نفس الوقت– كل الحسابات بل والتصورات ، هذه الثورة جديرة منا بدراسات عميقة لاستخلاص العبر واستنباط البواعث والإفادة من الدروس .

وهذه محاولة موجزة إنْ لم تكن كاملة فهي رائدة ، عسى أن تعقبها دراسات واسعة جادة تتناسب مع أهمية هذه الثورة الفريدة العجيبة ، تتوخى إيقاظ المسلمين وإعادة ثقتهم في دينهم واعتصامهم به حتى يتسلموا زمام قيادة البشرية من جديد ليستظل العالم بظلال الحضارة الإسلامية الربانية ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ... ﴾ [آل عمران : 110] .

العقيدة هي المحرك والمنطلق :

▪ أول هذه الدروس هو أثر العقيدة في الشعوب الإسلامية ، فأية روح تلك التي سرت في كيان هذا الشعب الذي كان يبدو خانعاً مستسلماً للظلم والطغيان ، فانفجر كالبركان لا يرهب الموت ولا يبالي بالحياة ، فأملى إرادته وهو أعزل وانتصر اللحم على الحديد ، إنها روح الإيمان التي صنعت بلالاً وياسراً وسلمان الفارسي ، والتي صنعت خالداً وسعداً وأبا عبيدة والتي أخرجت الصديق والفاروق ، والتي نصرت العصبة القليلة في بدر وحطين وعين جالوت ، والتي أنشأت المجتمع الإسلامي الأول ، وهي هي القادرة –بإذن الله– على إنشاء المجتمع الإسلامي اليوم والقادرة –دوماً– على تحريك الشعوب الإسلامية واستخراج طاقاتها الكامنة ليس في مجال الثورة وميدان القتال فحسب وإنما في كل مواقع الحياة ، فهذه الأمة لا يقودها إلاّ الإسلام .

الإسلام دين العزة والكرامة :

وهذه الثورة تدل على طبيعة هذا الدين الذي يأبى الضيم لأتباعه ويكفل لهم العزة والكرامة كما يكفل لهم الحياة سواء بسواء فلا حياة بغير عزة ﴿ ... **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ... ﴾ [المنافقون : 8] هكذا ربى الإسلام المسلمين حتى لتقول امرأة –أسماء بنت أبي بكر– : (والله لضربة بسيف في عزٍّ خير من ضربة بسوط في ذل) وما ذلك

إلاّ ثمرة من تربية رسول الله ﷺ لأصحابه وحرصه البالغ على كرامتهم حتى ليسير جيشاً يؤدب به يهود بني قينقـــاع انتصاراً لكرامة امرأة أهانها هؤلاء اليهود ، واقتداء بهذه الحادثة يهب أمير المؤمنين المعتصم لنجدة امرأة مسلمة لطمها رومي على بعد آلاف الأميال وتكون موقعة عمرية ، ولا يحرص الإسلام على كرامة المسلمين فحسب ولكنه يحرص على كرامة كل من يظلمهم نظامه فها هو عمر بن الخطاب ينتصر لقبطي من مصر ويصرخ في واليـــه عمـــرو بـــن العاص : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟) .

الإسلام دينٌ ودولة :

وتدل أيضاً على طبيعة هذا الدين من ناحية أخرى ، وهي أنه دين شامل بشرع للدنيا والآخرة ، وينظم الحيـــاة كلها ، يعنى بعدالة الحكم كما يعنى بإقامة الصلاة ، يضع نظاماً للاقتصاد الزكاة جزء منه . يقيم مجتمعه على أســـاس العقيدة والمساواة بين الناس وأخوة الإيمان ، يفصل أحكام المعاملات بين الناس كما يفصل أحكام العبادات ، يـــنظم العلاقة بين دولة الإسلام وغيرها من الدول فهو دين ودولة ، حكم وسياسة ، اقتصاد واجتماع ، تربية وأخـــلاق ، عبادة وجهاد .

فصل الدين عن الدولة (العلمانية) ضلالة مستوردة :

وبناء على ذلك فثورة إيران تمثل أول معول في جدار العلمانية وتثبت أن الشعوب الإسلامية قد اكتشفت زيـــف هذه الدعوى ، ومدى تعارضها مع الإسلام ، فرفضتها وقامت تشيد حكم الله ﴿ ... **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّـــهِ حُكْمًـــا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة : 50] .

والعلمانية هي الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة ، وحظر تدخل الإسلام في السياسة أو في شؤون الحكم ويلجـــأ إليها دائماً الطواغيت الذي يتعدون حدود الله ويعطلون شريعته ويطلقون لشهواتهم وذويهم العنان كي ينهبوا أمـــوال الشعوب ويلغوا في دمائهم وأعراضهم .

شريعة الله هي الحاكمة :

▪ وتثبت لنا هذه الثورة أن الشرعية القانونية والدستورية ما لم تكن مستمدة من شريعة الإسلام فهي شرعية زائفة مهما أضفي عليها من هالات القداسة الكاذبة ، لأن الدساتير والقوانين الوضعية تعبير عن ميزان القوى الحقيقي بـــين الحكومة والشعب ، والحكومة غالباً أقوى ثم أنها لا تحظى باحترام أحد من الناس لأنها من وضع بشر فضلاً عـــن أن مكانتها لدى واضعيها لا تزيد عن مكانة آلهة العجوة التي كان يصنعها عرب الجاهلية ويعبدونها فإذا جاعوا أكلوها ، فهؤلاء إذا تعارضت قوانينهم مع مصالحهم يوماً ما غيروها ، ولكن شريعة الإسلام هي شـــريعة الثبـــات والعـــدل والحكمة والكمال لأنها شريعة الله .

علماء الدين المخلصون هم الزعامة الحقة :

▪ وتدلنا هذه الثورة على حقيقة الزعامة في هذه الأمة وهي أن علماء المسلمين المخلصين كانوا دائماً هم المثابـــة التي يفزع إليها الشعب إذا دهمه خطر خارجي أو حاق به ظلم الحكام ، وسيرة سعيد بن المسيب وسعيد بـــن جـــبير وابن تيمية والنووي وعمر مكرم تعطر التاريخ ، ولقد كانت حركات التحرير في العصر الحديث في كل بلاد الإسلام حركات إسلامية قادها العلماء هذه الزعامة مبعثها الإيمان والحب ، لا تدفع إليها رغبة ولا رهبة ، أما أولئك العلماء الذين يسخرون العلم لتبرير الظلم ولسان حالهم يقول : الإسلام في خدمة الحكام ولو كانوا يحكمون بغير ما أنـــزل الله ، ويحاربون العاملين للإسلام ، أولئك الذي يؤثرون الدنيا على الآخرة ، ويبيعون الدين بالمناصب ، أولئك ما هم بعلماء وحسابهم عند الله عسير .

الظلم ظلمات :

▪ وتتجلى في هذا الثورة عاقبة الظلم ، فها هو الشاه الطاغية يخون أمته وينـــزل بها أبشع ألوان الظلم على مدى أربعين عاما .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ونسى أن الله يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ونسي أن الظلم ظلمات يوم القيامة فماذا كان مصيره ، طـــرد شرّ طردة وغدا مطلوباً للتحقيق والمحاكمة ، وأصبح مشيعاً بنظرات الازدراء والاحتقار وشعور المقت من كل أفـــراد الشعوب أين حلّ أو ارتحل رغم مجاملات بعض الحكام .

نرفض التبعية للغرب أو الشرق :

▪ ولعل من أبلغ الدروس التي جسدتها هذه الثورة هي ثمرة العمالة لدول الشرق أو الغرب ، فإن الحكام الـــذين يبيعون بلادهم ويسارعون في خدمة الشرق أو الغرب ويقمعون شعوبهم لصالح أسيادهم ويستأسدون علـــى الأبنـــاء ويركعون أمام الأعداء يتحولون إلى دمى في أيدي حكام الشرق أو الغرب مهما غلفوا هذه العمالة بأسماء الـــصداقة ومهما وصفوا هذه التبعية بصفة التعاون ، ولن تزيد قيمة أحدهم مهما بالغ في تقديم فروض الولاء والذل عن قيمـــة أحدهم مهما بالغ في تقديم فروض الولاء والذل عن قيمة الشاه الذي كان يعد العميـــل الأول للغـــرب في المنطقـــة الحارس لمصالحه والمفرط في حقوق شعبه وأمته ، فماذا حدث ؟ تنكر له الغرب وتخلى عنه كما يتخلى أحدهم عـــن نعله حينما يبلى ، ولم يغن عنه بعد ذلك لا جيشه ولا حرسه ولا بوليسه السري شيئاً ولا حتى المخابرات الأمريكية ، فهل آن للآخرين أن يعتبروا به ؟

فلسطين أرض إسلامية :

▪ ومن عجائب القدر أن تنفجر هذه الثورة لتؤكد موقف الإسلام الحق من قضية فلسطين بعد أن كاد يمنع حتى من أذهان الناس بتأثير الدعاية الإعلامية لتهيئة الجماهير لتقبل اليهود المغتصبين تحت وطأة الضعف والفقر والعداوة بين

العرب .

▪ وهذه الثورة تنعش الأمل –الذي لم يخب يوماً لدى المخلصين للإسلام– في قرب قيام الحكـــم الإســـلاميّ في مجتمعاتنا رغم المؤامرات المتشابكة للحيلولة دون ذلك ﴿ ... **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ** ... ﴾ [يوسف : 21] .

خطران قائمان :

▪ بيد أن ثمة خطرين ينبغي أن ننبه لهما جيداً سوف يحاول أعداء الإسلام استغلالهما إلى أقـــصى مـــدى : الأول ويتمثل في استغلال التناقضات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة لتمزيق الأمة الإسلاميّة واستنفاد طاقاتهـــا في معـــارك داخلية وعداوة وتطاحن .

والثاني وهو استثمار ثورة إيران في تحريض الحكومات المحلية على ضرب الحركـــات الإســـلاميّة ، ودعوتنـــا إلى الحكام أن يستفيدوا أيضاً من هذا الحدث ، وأن يعلموا أن عزتهم في عزة شعوبهم وأن عزة شعوبهم في الإسلام ، وأن ولاءهم يجب أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴾ [المائـــدة : 55] وأن يحكموا بما أنزل الله ﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ** ... ﴾ [المائدة : 49] .

ونقول لهؤلاء المحرضين : ﴿ ... **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران : 173] .

وأخيراً نذكر المسلمين بوعد الله الحق : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَـــسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِـــي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَـــوْفِهِمْ أَمْنًـــا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ... ﴾ [النور : 55] .